بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

رجعتُ فى هذه الطبعة أنظر فى فصول هذا البحث أصْلح فيها وأنقّح ما يحتاج إلى إصلاح وتنقيح ، ورأيت أن أعيد كتابة الفصل الثانى من الكتاب الأول الخاص بالصنعة فى النثر الإسلامى ، حتى أضيف إليه زيادات عن الإسلام ومعانيه الروحية ، والقرآن الكريم وهَدْيه وما كان له من آثار بعيده فى اللغة العربية ، والحديث النبوى وتدوينه وروعة تعبيره . ومضيت أفصّل القول فى الخطابة بفروعها الثلاثة من سياسية وحَفْلية ودينية ، ولاحظت أنه أتيح للخطابة الأخيرة خطباء مفوهون ، نوعوا معانيها تنويعاً واسعاً ، وعُنوا بأساليبها عناية بعيدة ، وقد هَدَتهم فِطَنُهم إلى نمط جديد من الصيغ الصوتية ، هو نمط الازدواج وما يُطْوَى فيه من ترادف موسيقى ، ودار هذا النمط على ألسنتهم ، ولم يلبث الكُتّاب — وعلى رأسهم سالم وعبد الحميد الكاتب — أن حاكوهم فى هذا النمط الرائع .

ورأيت أن أبْسُطَ الكلام فى الفصل التالى الخاص بالصنعة فى النثر العباسى . حتى أوضح كيف تطور المترجمون والمتكلمون — وخاصة المعتزلة — بهذا النثر ، فإذا أسلوب مولَّدٌ جديد ينشأ فيه ، وهو أسلوب مبسَّط وسط بين لغة البدو الجافية ولغة العامة المبتذلة ، وفى الوقت نفسه يحتفظ بالجزالة والرصانة والرونق ، مع مرونته وطواعيته لأداء معان ومدلولات لم يكن للعربية بها عهد .

وقد نهض بهذا الأسلوب نُخْبة من المترجمين فى مقدمتهم ابن المقفع الذى طارت شهرته فى أوائل العصر العباسى لما أظهر من مهارة فى صَبّ خير ما كانت تحمله لغته الفارسية من ثقافات مختلفة فى قوالب عربية أصيلة ، لا يشوبها

أى ضرب من ضروب الرطانة الأعجمية ، فالعربية — عنده — تحتفظ بمشخّصاتها وأصولها وأوضاعها فى النحو والصرف والاشتقاق والتركيب ، بينما تتمثّل معانى الثقافات الأجنبية تمثلا دقيقاً فى ألفاظ مألوفة بيّنة واضحة ، مع حرصه على الدقة والإيجاز ، ومع بعده عن التوعر والتعقيد ، ومع النسج المحكم الدقيق .

ووطّد المتكلمون دعائم هذا الأسلوب العباسى المولّد الجديد ، بما ملكوا من أزمّة العربية وكنوز الفلسفة والثقافات الأجنبية ، وقد أثاروا مباحث كثيرة فى علم الكلام وفى الطبيعة والأخلاق ، ولم يكونوا يصنّفون فحسب ، بل كانوا أيضاً يناظرون ويجادلون الدهرية والزنادقة والملحدين بهذا الأسلوب الجديد الذى يموج بالألفاظ الجزلة المونقة والمعانى الغزيرة المرتبة فى مقدمات منطقية دقيقة ومقاييس عقلية سديدة . وكانوا يفحصون مواد تعبيرهم ويمتحنونها ويختبرونها ، حتى يضعوا دقائق معانيهم فى الألفاظ الطليّة التى توائمها ، ودفعهم ذلك إلى أن يسجلوا ملاحظات مختلفة لهم على صحة مخارج الحروف وجمال الألفاظ ووضوح المعانى ومواطن الإيجاز والإطناب ومحاسن التعبير ، وحاولوا الوقوف على ما سبقهم إليه اليونان وغير اليونان من آراء وملاحظات فى هذه الجوانب ، وبذلك كانوا المؤسسين لأصول البلاغة العربية ، وقد انتهى عندهم الأسلوب العباسى المولّد إلى كل ما كان ينتظره من روعة وجمال فى اللفظ والمعنى .

وكل ما زدته فى هذه الطبعة أو صححته أو نقّحته إنما دفعنى إليه تحرّى الدقة ، ومن رأيى دائماً أن يعيد المؤلف النظر فى مؤلفاته حين يعدّها للطبع من جديد . وبذلك تنمو الدراسة الأدبية ، ويستوفى الدارسُ حقوقَها بقدر ما يستطيع ، فتكثر الفائدة منها ويزداد النفع . والله أسأل أن يلهمنى السّداد فى القول والإخلاص فى الفكر والعمل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

القاهرة فى ١٥ من يناير سنة ١٩٦٠ م .

شوقى ضيف

مقدمة الطبعة الأولى

اتخذتُ فى هذا الكتاب السِّيرة التى اتخذتها فى كتاب (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى) فقد درست هناك الشعر فى عصوره المختلفة دراسة أتاحت لى أن أضع للفن فيه — أو بعبارة أخرى لصناعته — ثلاثة مذاهب ، وهى : الصَّنْعة والتصنيع والتصنع . ومذهب الصنعة هو المذهب الذى نجده فى أقدم نماذج الشعر العربى ، إذ كان أصحابه يخضعون لطائفة من الرسوم والتقاليد فى صُنْعه ، وهى تقاليد ورسوم تجعل الإنسان يشعر بأن أدبنا العربى منذ أقدم العصور أدبٌ تقليدىّ ، إذ تتضح فيه عناصر التقليد اتضاحاً تامًّا ، غير أن هذه العناصر لا تطغى على عناصر التحول والتطور فيه . ومن أجل ذلك كنا لا نمضى فى درس الشعر العربى بعد خروجه من البادية إلى المدن المتحضرة حتى نرى مذهباً جديداً يخرج فى صناعته ، هو مذهب التَّصْنيع الذى كان يقوم على طرائف الزخرف المختلفة من بديع وغير بديع . ونتغلغل فى العصر العباسى فإذا الحضارة العربية تتعقد تعقداً شديداً ، وهو تعقدٌ لم يلبث أن انتقل إلى الصناعة والفن فى الشعر فأهَّل لخروج مذهب جديد هو مذهب التصنُّع الذى كان يقوم على تصعيب طرق الأداء . وقد جمد الفن فى الشعر العربى عند هذه المذاهب الثلاثة ولم يتجاوزها إلى مذهب جديد .

وهذه المذاهب التى فسَّرتُ بها الفن فى الشعر العربى ومراحله المتتابعة هى نفسها التى فسرت — على ضوئها — الفن فى النثر العربى ومراحله المتعاقبة ، فقد بدأتْ صناعة النثر فى العصر الجاهلى بصورة فنية لا تأنق فيها ولا تعقيد تبعاً لحياة العرب البسيطة التى لم تكن تعتمد على تصعيب فى الأداء ولا على تنميق . وفزعتُ فى وصف صورة النثر حينئذ إلى نصوص الشعر الجاهلى لأنها أكثر صحة مما يضاف إلى هذا العصر من خطابة وسجع كُهَّان ، ووجدت

فى هذه النصوص ما يصور تصويراً تامًّا طبيعة النثر الجاهلى وما كان يوفر له أصحابه من تحبير وتجويد .

ويدور الزمن دورة ، وإذا الإسلام يفتح صفحة مشرقة فى تاريخ العرب ، فقد أخرجهم من الظلمات إلى النور ومن دائرة الشعوب القبلية إلى دوائر الأمم المتحضرة . وقد رأيت النثر يستمر فى أثناء العصر الإسلامى فى الصورة التى رسمها العصر الجاهلى من حيث نسجه وصوغه ، وإن اختلفت موضوعاته ، وتشعبت معانيه ، فقد اتسعت الخطابة اتساعاً شديداً ، وأخذ يظهر بجانبها نوع جديد من النثر ، لم يكن للعرب عهد به ، وهو الكتابة الفنية ، أو ما يسميه بعض الباحثين باسم النثر الفنى . واستوعبتُ — فى دقة — نشأة هذا النوع ، وأثبتُّ أنه لم ينشأ بفضل العناصر التى تحدَّرت من أصول أجنبية ، وإنما نشأ بفضل العرب أنفسهم وفى ظل نظمهم السياسية الجديدة . وليس معنى ذلك أنى أنكرت تأثير العناصر الأجنبية فى هذا النوع ، بل لقد أخذتْ تشارك فيه مع مرور الزمن ولكنها مشاركة اتصلت بنموه وتطوره لا بوجوده ونشأته . وما زال هذا النوع يتطور فى العصر الإسلامى حتى وصل إلى عبد الحميد الكاتب فأعطاه صورته النهائية ، وهى صورة اندمجت فى صورة المذهب القديم : مذهب الصنعة والصانعين . وقد ذهبت إلى أن عبد الحميد كان يتصل بالثقافة الفارسية مباشرة ، أما الثقافة اليونانية فاتصل بها عن طريق أستاذه سالم الذى كان يعرفها معرفة وثيقة .

ويدور الزمن دورة أخرى ، فإذا بنا نصل إلى العصر العباسى ، ونلتقى بابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وأضرابهم ممن كانوا يعنون بالكتابات الطويلة ، أو بعبارة أخرى بالرسائل والكتب الأدبية ، وقد حافظتْ هذه الجماعة على إطار النثر الذى تسلمته من عبد الحميد الكاتب ، فلم تخرج به إلى مذهب جديد ، بل عاشت فى إطار مذهب الصنعة القديم ، على الرغم من البون الشاسع بين ثقافتها وثقافة أصحاب المذهب فى العصور السابقة . وقد أوضحت منزلة ابن المقفع وما استطاع أن ينهض به من الملاءمة بين العربية وما نقل إليها

من كنوز الآداب الأجنبية ، إذ استطاع أن يحتفظ لها بخصائصها وبأسلوبها الجزل الرصين . أما الجاحظ فعُنيت ببيان فنه عناية واسعة ، ودرست له (رسالة التربيع والتدوير) دراسة مفصلة ، وذهبتُ فى تعليل تكراره المسرف إلى أنه كان يُملى كثيراً من كتبه ، إذ أملى البيان والتبيين والحيوان والبخلاء ورسالة التربيع والتدوير نفسها ، ومن أجل ذلك اتَّسَمَتْ كتاباته — غالباً — بمياسم كتب الإملاء والمحاضرة من حيث التكرار والاستطراد وما يتصل بذلك أحياناً من خلل فى البناء .

ولما تركتُ هذه الجماعة من أصحاب الكتابات الطويلة فى العصر العباسى إلى أصحاب الكتابات الرسمية القصيرة ، أو بعبارة أخرى أصحاب الدواوين والكتابة الديوانية ، وجدت هذه الجماعة الثانية تسعى إلى إحداث مذهب جديد ، هو مذهب التصنيع ، وهو مذهب كان يعبر تعبيراً دقيقاً عن الحضارة العباسية وما يطوى فيها من تأنق وتنميق . وما زالتْ مقدماتُ هذا المذهب تتراءى — من حين إلى حين — فى الدواوين العباسية حتى إذا كان مطلع القرن الرابع للهجرة وجدت السجع يعمُّ فى دواوين المقتدر . وما لبث ابن العميد وزير البويهيين أن وصل بهذا السجع إلى ما كان ينتظَر له من ترصيع بطرائف البديع المعروفة من جناس وطباق وتصوير . وعللتُ لاكتمال المذهب عند ابن العميد بأنه كان يتقن فن التصوير وعلم الحِيَل (الميكانيكا) فذهب يحتال فى نماذجه حيلا أدّته إلى أن يوفر لها كل ما يستطيع من زخارف السجع والبديع . ووقفت بعد ذلك عند أنصار هذا المذهب من مثل الصاحب بن عباد وأبى إسحق الصابى والخوارزمى وبديع الزمان ، ولاحظت أن بذوراً مكتنّة لمذهب ثالث أخذت تظهر عند الأخيرَيْن ، وقد بدت فى شكل أتم وأوضح عند قابوس بن وشمكير . وما هى إلا أن يدور الزمن دُورة ، فإذا هذا المذهب تتم له صورته عند أبى العلاء ، ونقصد مذهب التصنُّع الذى كان يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضروباً من التعقيد ، وإن الإنسان ليشعر كأن التعقيد أصبح غاية فى نفسه ولنفسه ! واستطردت من أبى العلاء إلى الحريرى فى آثاره والحصكفى فى نماذجه ،

وفسَّرت ما نهضا به من تعقيد فى أدوات فنهما ووسائله .

ويدور الزمن بعد ذلك فى العصور الوسطى دورة بل ما شاء من دورات ، فلا يظهر مذهب جديد فى صناعة النثر العربى وصياغته ، بل يجمد الأدباء عند صورة المذهب الأخير ، ويمكثون فى إطارها حائرين حتى العصر الحديث . وهذه هى المذاهب أو المراحل التى مرَّ بها الفن فى النثر العربى ، فقد بدأ بمرحلة الصَّنْعة ، ثم انتقل إلى مرحلة التصنيع ، وما لبث أن انتهى إلى مرحلة التصنُّع ، وتحجَّر فى هذه المرحلة فلم يستطع منها إفلاتاً ولا خلاصاً . وقد ذهبت أدرس هذا النثر فى الأندلس ومصر فتعقَّبت فى الإقليمين نشأته ، وتطوره ، ومناهجه ، وأشهرَ أساتذته وأعلامه ، وانتهيت من هذا التعقب إلى أن الأندلس ومصر جميعاً لم يستحدثا مذهباً يمكن أن نضمَّه إلى جملة المذاهب التى ظهرت فى المشرق . وإن الباحث ليشعر كأنما كانت أصول المذاهب المشرقية فى صناعة الأدب العربى : شعره ونثره أثبت وأصلب فى تاريخ هذا الأدب من أن يصيبها أىّ إقليم من الأقاليم العربية بضرب واسع من ضروب التحريف والتغيير . وليس معنى ذلك أن مصر والأندلس لم تعبرا عن شخصيتهما أى تعبير فى أدبهما ، بل لقد عبَّرتا ولكن فى طاقة محدودة وداخل المذاهب المشرقية الموضوعة . وسُقْت بعد ذلك خاتمة عرضت فيها بإيجاز لنهضة النثر المصرى الحديث .

وهذه الدراسة المتشعبة للنثر العربى وما مرّ به من أحداث فى عصوره وأقاليمه المختلفة جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من كتب الأدب والتاريخ والجغرافية عند العرب ، وكذلك رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين . وينبغى أن أشير هنا إلى صعوبة هذا البحث وكثرة ما صادفنى فيه من مشاكل ، كما ينبغى أن أشير إلى أنه كانت غايتى الأساسية — منذ الخطوات الأولى فيه — أن أضع أمام القارئ الصُّوَر الدقيقة للنثر العربى فى مختلف أطواره ومراحله ، وهى صور حاولت أن أحتفظ لها بخصائصها ، فلم أعتمد على حكاية إحساسى وشعورى إزاء نماذجها ؛ وأيضاً فإننى لم أعتمد فى مسألة على الفروض والأوهام ، وإنما

اعتمدت على النصوص الحسية نفسها . وكل ما أرجوه أن أكون قد عرَّفت — بعض التعريف — بالنثر العربى فى مختلف مناهجه ومذاهبه ، وهو تعريف قصدت به فى هذا الكتاب — كما قصدت فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » — أن أحبِّب قراءةَ أدبنا إلى شباب العصر الحديث الذين يؤمنون بفكرة المذاهب والمناهج وتطبيقها فى الدراسات المختلفة . والله ولىُّ الهدى والتيسير .

شوقى ضيف

القاهرة فى ١١ من أبريل سنة ١٩٤٦ م

obeikandl.com